الفصل الرابع

ترجيحات الإمام الآلوسي في مسائل العقيدة

ويشتمل على مبحثين :

- **المبحث الأول : منهج الإمام الآلوسي العقدي .**
- **المبحث الثاني : عرض ودراسة ترجيحات الإمام الآلوسي في مسائل العقيدة .**

obeikandl.com

المبحث الأول
منهج الإمام الآلوسي العقدي

سلك الإمام الآلوسي في الاستدلال على العقائد مسلكي النقل والعقل فهو يبرهن بالنقل والعقل فيما للعقل فيه مجال ، أما القضايا السمعية التي لا مجال للعقل فيها فإنه يعتمد على السمع كما هو مذهب أهل السنة والجماعة ، وعندما يسوق الأدلة العقلية فهو يجعل العقل سائراً وراء النقل يعززه ويقويه ، ولا يجعله مستقلاً بالاستدلال .

ومن أمثلة ذلك :

تفسيره لآيات الصفات يفسرها بلا تأويل ولا تشبيه ويقول " والأولى إتباع السلف في الإيمان بهذه الأشياء يعني المتشابهات – وردُّ العلم إلى الله تعالى بعد نفي ما يقتضي التشبيه والتجسيم عنه تعالى " . (١)

ولذلك نراه يحذر من التأويل فيقول :

" وذهب أئمة السلف إلى الانكفاف عن التأويل وإجراء الظواهر على مواردها ، وتفويض معانيها إلى الله عز وجل ، والذي نرتضيه رأياً ، وندين الله تعالى به عقيدة : إتباع سلف الأمة للدليل القاطع عن أن إجماع الأمة حجة ، فلو كان تأويل هذه الظواهر حتماً لكان اهتمامهم فوق اهتمامهم بفروع الشريعة إذ انصرم عصر الصحابة والتابعين على الإضراب عن التأويل كان ذلك هو الوجه المتبع " . (٢)

ويدخل في معارك شديدة مع المعتزلة ، والخوارج ، والمدارس الكلامية التي لا يؤمن بآرائهم ، وهو أشد ما يكون خصومة معهم فيفند آرائهم طالما خالفوا عقيدة السلف ، وذلك مثل رأيهم في فعل العباد وإرادة الله ، والذات ، والصفات ، والحسن والقبح العقليين.

وذلك في مثل قوله تعالى: ﴿ **افْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِباً إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللَّهُ مِنْهَا وَمَا يَكُونُ لَنَا أَن نَّعُودَ فِيهَا إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا** ﴾ (٣)

فيقول " وفي الآية دلالة على أن الله تعالى يشاء الكفر " . (٤)

ويرد على المعتزلة الذين يقولون بأن الحسن والقبيح من فعل العبد بأن ذلك من فعل الله وذلك في قوله تعالى: ﴿ **وَآتَانِي رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَارِهُونَ** ﴾ (٥)

ويرد على الرافضة الذين ينكرون دلالة قوله تعالى: ﴿ **ثَانِيَ اثْنَيْنِ** ﴾ على شيء من الفضل في حق الصديق رضي الله عنه . (٦)

---

(١)- روح المعاني جـ ٣ ، ص ٩٠ سورة آل عمران آية ١٣٣ ، وروح المعاني جـ ٩ ، ص ٢٢٤ ، سورة طه آية ٥ .

(٢)- روح المعاني جـ ١٦ ، ص ٢٦ ، سورة الملك آية ١٧ .

(٣)- سورة الأعراف آية ٨٩ .

(٤)- روح المعاني جـ ١٢ ، ص ٥٨ ، سورة هود آية ٢٨ .

(٥)- روح المعاني جـ ١٢ ، ص ٥٨ ، سورة هود آية ٢٨ .

(٦)- روح المعاني جـ ١٠ ، ص ١٤٤ ، سورة التوبة آية ٤٠ .

وبذلك يتبين لنا أن الآلوسي رحمه الله كان سلفي العقيدة والمذهب ، يرفض التأويل والتمثيل والتشبيه والتعطيل ، ويرد على المتأولين ويناقشهم مناقشة قوية ويدافع عن العقيدة الإسلامية دفاعاً كبيراً ، ويرفض المسائل الفلسفية والكلامية ، فهو لم يتحدث عن قضية إثبات الوجود والعدم كما أنه لم يتحدث عن الجواهر والأعراض ، وغير ذلك مما خاض فيه الفلاسفة والمتكلمون .

وفيما يلي عرض ودراسة ترجيحات الإمام الآلوسي في مجال العقيدة .

openkandl.com

المسألة الأولى
إثبات أن إرادة الله يصح تعلقها بالإغواء

في قوله تعالى: ﴿ وَلاَ يَنفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ (١)

قال الإمام الآلوسي رحمه الله :

" وفي الآية دليل على أن إرادة الله تعالى مما يصح تعقلها بالإغواء وأن خلاف مراده سبحانه محال ، والمعتزلة وقعوا في حيص بيص منها واختلفوا في تأويلها ، فقيل : إن " يغويكم " بمعنى يهلككم من غوى الفصيل إذا بشم من كثرة شرب اللبن فهلك ، وقيل : إن الإغواء مجاز عن عقوبته أي إن كان الله يريد عقوبة إغوائكم الخلق وإضلالكم إياهم ، وقيل : إن قوم نوح كانوا يعتقدون أن الله تعالى أراد إغواءهم فأخرج عليه السلام ذلك مخرج التعجب والإنكار أي إن نصحي لا ينفعكم إن كان الأمر كما تزعمون ، وقيل : سمى ترك إلجائهم وتخليتهم وشأنهم إغواء مجازاً ، وقيل : إن نافية أي ما كان الله يريد أن يغويكم ، ونفي ذلك دليل على نفي الإغواء ، ويكون " لا ينفعكم نصحي " إخباراً منه عليه السلام لهم وتعزية لنفسه عنهم لما رأى من إصرارهم وتماديهم على الكفر ، ولا يخفى ما في ذلك من مخالفة الظاهر المعروف في الاستعمال وارتكاب مالا ينبغي ارتكاب مثله في كلام الملك المتعال . وبالجملة الآية ظاهرة جداً فيما ذهب إليه أهل السنة . (٢)

المعنى الإجمالي للآية :

يقول جل شأنه حكاية عن نوح ، لا تنفعكم نصيحتي الصادرة لكم في إخلاص وإيمان بالحق إن أردت أن أنصح لكم وأخلص لكم مرفقاً بكم غير مغلظ إن كانت إرادة الله تعالى أن تستمروا في طريق الغواية وهي الضلالة حتى تنتهوا إليها فأنا أريد لكم النصح والله يريد لكم أن تستمروا في طريق الضلالة وإرادته سبحانه هي النافذة . (٣)

دراسة النص :

الناظر إلى هذا النص يرى أن الإمام الآلوسي ذكر قولي أهل السنة والمعتزلة في أن إرادة الله هل يصح تعقلها بالإغواء وهما كالآتي :

القول الأول : أن إرادة الله تتعلق بالإغواء وهو مذهب أهل السنة والجماعة . (٤)

القول الثاني : أن إرادة الله لا تتعلق بالإغواء بوجه من الوجه لخروجه عن الحكمة وهو مذهب المعتزلة والقدرية . (٥)

---

(١)- سورة هود الآية ٣٤ .

(٢)- روح المعاني جـ ١٢ ، ص ٧٠ .

(٣)- زهرة التفاسير جـ ٧ ، ص ٣٧٠٤ .

(٤)- انظر:مفاتيح الغيب جـ ١٨ ،ص ١٧٥، وغرائب القرآن جـ ٤، ص ١٩ وحاشية زاده جـ ٤ ، ص ٦٤١ .

(٥)- الجامع لأحكام القرآن للقرطبي جـ ٩ ، ص ٢٨ .

وقد اختار الإمام مذهب أهل السنة والجماعة في تلك المسألة ، وتلخيص اعتقاد أهل السنة فيها أن أفعال العباد – طاعتها ومعاصيها – مخلوقة لله تعالى [١] فالله تعالى خالق كل شيء حقيقة ، والعبد فاعل كذلك حقيقة ، وله مشيئة وقدرة واختيار [٢] وجهة إضافة الأفعال إلى الله تعالى تعني : أنه خلق أفعال العباد منفصلة عنه ، قائمة بالعبد ، وجعل العبد فاعلاً لها بقدرته ومشيئته اللتين خلقهما الله فيه ، وكل من الإحداثين مستلزم للآخر ، لكن جهة الإضافة مختلفة ، وبهذا الاعتبار في التفريق بين جهتي الإضافة يزول الإشكال في الجمع بين القضاء والقدر والأمر والنهي [٣] لأن نسبة هذه الأفعال للعباد فعلاً لا ينافي نسبتها إلى الله إيجاداً أو خلقاً ، لأنه هو الخالق لجميع الأسباب التي وقعت بها [٤] ولأهل السنة في التدليل على مذهبهم أدلة عديدة منها :

١ – قوله تعالى: ﴿ **اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ** ﴾ [٥] وهذا عام محفوظ لا يخرج منه شيء من العالم ، أعيانه وأفعاله وحركاته وسكناته ، وليس مخصوصاً بذاته وصفاته ، فإنه الخالق بذاته وصفاته وما سواه مخلوق له . [٦]

٢ – وقوله تعالى: ﴿ **أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلِ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ** ﴾ [٧] فنفى الله سبحانه وتعالى أن يكون خالق غيره ، ونفى أن يكون شيء سواه غير مخلوق ، فلو كانت أفعال العباد غير مخلوقة لكان الله تعالى خالق بعض الأشياء دون جميعها ، وهذا خلاف الآية ، ومعلوم أن الأفعال أكثر من الأعيان ، فلو كان الله تعالى خالق الأعيان ، والناس خالقي الأفعال ، لكان خلق الناس أكثر من خلقه ، ولكانوا أتم قوة منه ، وأولى بصنعة المدح من ربهم تعالى ربنا عن ذلك علواً كبيراً ، فثبت أن الله عز وجل هو الخالق لأفعال عباده خيرها وشرها . [٨]

---

(١)- انظر : خلق أفعال العباد للبخاري ص ٣٣ ، ٣٤ تحقيق بدر البدر – ط الدار السلفية ، الطبعة الأولى ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م ، وشرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة للإمام أبي القاسم هبة الله بن الحسن بن منصور الطبري اللالكائي جـ ٣ ، ص ٥٣٤ ، تحقيق د / أحمد سعد حمدان ، ط دار طيبة ، بالرياض .

(٢)- مجموع الفتاوى جـ ٨ ، ص ١١٧ ، ١١٨ .

(٣)- منهاج السنة النبوية في نقد كلام الشيعة والقدرية لشيخ الإسلام بن تيمية . جـ ٣ ، ص ٢٣٩.

(٤)- شرح العقيدة الواسطية لشيخ الإسلام ابن تيمية – للدكتور محمد خليل هراس ص ١١٢ ، ط مكتبة ابن تيمية ، الطبعة الرابعة .

(٥)- سورة الزمر الآية ٦٢ .

(٦)- شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل للإمام أبي عبد الله محمد بن أبي بكر ابن القيم ص ١١٦ ، تحرير الحساني حسن عبد الله ، ط دار التراث .

(٧)- سورة الرعد آية ١٦ .

(٨)- الاعتقاد على مذهب السلف أهل السنة والجماعة للإمام أبي بكر احمد بن الحسين البيهقي ، ص ٧٣ ، ط دار السلام العالمية ١٩٨٤م .

٣ – وقوله تعالى: ﴿ وَلاَ تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ﴾ [١] وفي هذه الآية رد ظاهر على المعتزلة والجبرية [٢] ، وإبطالهما قولهما ، فإنه سبحانه أغفل قلب العبد عن ذكره فغفل هو ، فالإغفال فعل الله تعالى ، والغفلة فعل العبد ، ثم أخبر عن أتباعه هواه ، وذلك فعل العبد حقيقة . [٣]

٤ – وقوله تعالى: ﴿ وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَى ﴾ [٤] والضحك والبكاء فعلان اختياريان ، فهو سبحانه المضحك المبكي حقيقة ، والعبد هو الضاحك الباكي حقيقة [٥] ، وقد يضحك الكافر سروراً بقتل المسلمين وهو منه كفر ، وقد يبكي حزناً بظهور المسلمين وهو منه كفر ، فثبت أن الأفعال كلها خيرها وشرها صادرة عن خلقه تعالى وإحداثه إياه . [٦]

٥ – وعن حذيفة بن اليمان [٧] أن النبي ﷺ قال : " **إن الله خالق كل صانع وصنعته** " [١]

---

(١)- سورة الكهف آية ٢٨ .

(٢)- الجبرية : أتباع جهم بن صفوان الذي قالوا : لا فعل لأحد في الحقيقة إلا لله تعالى وحده ، وأنه هو الفاعل وأن الناس إنما تنسب إليهم أفعالهم على المجاز كما يقال تحركت الشجرة وإنما فعل ذلك بالشجرة الله سبحانه وتعالى ، فالعبد مجبور في فعله وليس له قدرة ولا إرادة ولا اختيار، بل هو كريشة معلقة في الهواء تسيرها الأقدار كما تشاء فجميع الأفعال اضطرارية،انظر في مقالاتهم مقالات الإسلاميين جـ ١ ، ص ٣٣٨ ، وشرح الأصول الخمسة للقاضي عبد الجبار بن أحمد المتوفى ٤١٥هـ ، ص ٣٢٤ ، تحقيق د / عبد الكريم عثمان ، ط مكتبة وهبة ، الطبعة الأولى ١٣٨٤هـ - ١٩٦٥م ، وأصول الدين للإمام عبد القاهر بن طاهر بن محمد البغدادي المتوفى ٤٢٩هـ ، ص ١٣٤ ، ط دار الآفاق ، بيروت ، وهذا مذهب ظاهر البطلان ، لأنه يؤدي إلى الفوضى المطلقة والخلط الشائن ، وفيه اتهام الله عز وجل بالظلم ، وتكليف العباد بما لا قدرة لهم عليه ، ومجازاتهم على ما ليس من فعلهم ، واتهام الله بالعبث في تكليف العباد ، وإبطال الحكمة من الأمر والنهي ، ألا ساء ما يحكمون ، انظر : شرح العقيدة الواسطية ص ١١٣ ، ص ١١٤ ، ولما كانت هذه المقالة مخالفة للعقل والفطرة والشرع لم تحتج من أهل السنة إلى الإكثار في الإبانة عن فسادها وجهل قائلها ، ولذا كان الاحتجاج بالقدر على المعاصي حجة باطلة داحضة باتفاق كل ذي عقل ودين من جميع العاملين ، انظر : منهاج السنة لابن تيمية جـ ٣ ، ص ٥٥ .

(٣)- شفاء العليل ص ١٣٩ .

(٤)- سورة النجم آية ٤٣ .

(٥)- شفاء العليل ص ١٣٠ .

(٦)- الاعتقاد للبيهقي ص ٧٣ ، ٧٤ .

(٧)- حذيفة بن اليمان : بن جابر بن عمرو بن ربيعة بن الحارث بن سعد بن قيس ، من نجباء الصحابة ، وصاحب سر رسول الله له في الصحيحين اثنا عشر حديثاً ، وله في البخاري ثمانية ، وفي مسلم سبعة

قال البخاري " فأخبر أن الصناعات وأهلها مخلوقة " .[٢]

٦ – وعن طاووس [٣] قال : " أدركت ناساً من أصحاب النبي ﷺ يقولون " كل شيء بقدر، وسمعت ابن عمر يقول : قال **النبي ﷺ " كل شيء بقدر حتى العجز والكيس"**[٤] قال النووي : " ومعناه أن العاجز قد قدر عجزه ، والكيّس قد قدر كيسه " .[٥]

وقال الدكتور موسى شاهين : " إنما جعلهما في الحديث غاية لذلك للإشارة إلى أن أفعالنا وإن كانت معلومة لنا ومرادة منا لا تقع منا إلا بمشيئة الله تعالى " .[٦]

٧ – وعن أشج عبد القيس [٧] أن النبي ﷺ **قال له : " إن فيك خلقين يحبهما الله ، الحلم والحياء ، قال جلبت جبلاً عليه أو خَلْقاً مني ؟ قال بل جبلاً جبلت عليه قلت: قديماً**

عشر حديثاً ، شهد والده أحداً ، واستشهد والده يومئذ ، قتله بعض الصحابة غلطاً ، لأن الجيش يختفون في لأمة الحرب ، ويسترون وجوههم ، وتصدق حذيفة عليهم بديته ، ولي أمر المدائن لعمر فبقي عليها إلى إمرة عثمان ، وقد أسر النبي إلى حذيفة أسماء المنافقين ، وهو الذي ندبه رسول الله ليلة الأحزاب ليحس له خبر العدو ، مات بالمدائن سنة ست وثلاثين ، انظر : الإصابة جـ ٢ ، ص ٤٤ ٤٥ ، وسير أعلام النبلاء جـ ٢ ، ص ٣٦١ ، ومعجم الصحابة جـ ١ ، ص ١٩١ .

(١)- أخرجه البخاري في كتاب خلق أفعال العباد ص ٣٩ ، والحاكم في المستدرك جـ ١ ، ص ٣١ ، كتاب الإيمان باب إن الله خالق كل صانع وصنعته ، وذكره الهيثمي في المجمع جـ ٧ ، ص ١٩٧ وقال : أخرجه البزار ورجاله رجال الصحيح غير أحمد بن عبد الله وهو ثقة ، انظر : مجمع الزوائد ومنبع الفوائد للحافظ نور الدين علي بن أبي بكر الهيثمي المتوفى ٨٠٧هـ ، ط دار الكتاب – بيروت ، الطبعة الثانية ١٩٦٧م .

(٢)- خلق أفعال العباد ص ٣٩ .

(٣)- طاووس : هو طاووس بن كيسان اليماني ، أبو عبد الرحمن الحميري ، قال ابن عباس إني لأظن طاووساً من أهل الجنة ، وقال ابن حبان كان من عباد أهل اليمن ، ومن سادات التابعين ، وكان مستجاب الدعوة ، مات سنة إحدى وقيل سنة ست ومائة وقيل غير ذلك . تهذيب التهذيب جـ ٣ ، ص ٩ .

(٤)- أخرجه مسلم في كتاب القدر – باب كل شيء بقدر ، جـ ٤ ، ص ٢٠٤٥ ، رقم ٢٦٥٥ .

(٥)- شرح النووي على صحيح مسلم جـ ١٦ ، ص ٢٠٥ .

(٦)- فتح المنعم جـ ١٠ ، ص ١٨١ .

(٧)- أشج عبد القيس : هو عائذ بن عمرو بن هلال بن يزيد المزني ، من مزينة مضر ، وكان ممن بايع بيعة الرضوان تحت الشجرة ، يقال له الأشج العبدي وكان من صالحي الصحابة ، سكن البصرة وابتنى بها داراً وتوفى في إمارة يزيد بن معاوية ، روى عنه الحسن ومعاوية بن قرة وعامر الأحول وغيرهم . الثقات جـ ٣ ، ص ٣١٣ ، وأسد الغابة جـ ٣ ، ص ٤٣ .

كان أو حديثاً ؟ قال " قديماً " قال : الحمد لله الذي جبلني على خلقين أحبهما الله " . (١)

٨ – وعن عبد الله بن عمرو أن النبي ﷺ **قال " إذا أفاد أحدكم المرأة أو الدابة ، فليقل : اللهم إني أسألك من خيرها وخير ما جبلت عليه ، وأعوذ بك من شرها وشر ما جبلت عليه " .** (٢)

وفي الحديثين المتقدمين دلالة قوية على مذهب أهل السنة أن الله عز وجل هو الخالق لأفعال عباده خيرها وشرها ، لا خالق لها سواه .

٩ – وعن إياس بن معاوية (٣) أنه قال : لم أخاصم بعقلي من أهل الأهواء غير أصحاب القدر ، قلت: أخبرني عن الظلم ما هو ؟ قال : أن يأخذ الرجل ما ليس له ، قلت : فإن الله له كل شيء . (٤)

هذه هي أدلة أهل السنة والجماعة في أن أفعال العباد مخلوقة لله تعالى ومنها أن إرادته تعالى يصح تعلقها بالإغواء مخالفة لمذهب المعتزلة .

وقد اتفق مع الآلوسي جماعة من المفسرين إليك بعض أقوالهم :

قال أبو حيان :

" والظاهر أن معنى يغويكم يضلكم وفيه إسناد الإغواء إلى الله تعالى فهو حجة على المعتزلة " . (٥)

وقال الرازي :

" احتج أصحابنا بهذه الآية على أن الله تعالى قد يريد الكفر من العبد وأنه إذا أراد منه ذلك فإنه يمتنع صدور الإيمان منه " . (١)

---

(١)- أخرجه البخاري في خلق أفعال العباد ص ٦٤ ، وفي الأدب المفرد باب التؤدة في الأمور، ص ١٦٦ رقم ٥٩٧ ، وقال محققه : صحيح ، انظر : الأدب المفرد للآداب النبوية للإمام محمد بن إسماعيل البخاري المتوفى ٢٥٦هـ تحقيق د / خالد العك ، ط دار المعرفة ، بيروت، الطبعة الأولى ١٤١٦هـ - ١٩٩٦م .

(٢)- أخرجه أبو داود في كتاب النكاح باب في جامع النكاح جـ ٢ ،ص ٢٥٥ ، رقم ٢١٦٠ ، والحاكم في كتاب النكاح جـ ٢ ، ص ١٨٥ وصححه ووافقه الذهبي ، وابن ماجة في كتاب التجارات باب ٤٧ – شراء الرقيق جـ ٢ ، ص ٧٥٧ ، رقم ٢٢٥٢ .

(٣)- إياس بن معاوية : هو إياس بن معاوية بن قرة المزني ، قاضي البصرة وأحد أعاجيب الدهر في الفطنة والذكاء ، قال الجاحظ إياس من مفاخر مضر ومن مقدمي القضاة كان صادق الحدس عجيب الفراسة ملهماً وجيهاً عند الخلفاء ، مقدماً عند الأكفاء ، توفى بواسط سنة ١٢٢هـ . الأعلام جـ ٢ ، ص ٣٣ ، والبيان والتبيين للجاحظ جـ ١ ، ص ١٠١ ، تحقيق عبد السلام هارون ، الناشر مكتبة الخانجي ، القاهرة ، الطبعة الخامسة ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م .

(٤)- أخرجه البيهقي في الاعتقاد ص ٧٩ .

(٥)- البحر المحيط جـ ٦ ، ص ١٤٧ .

وقال العلامة أبو السعود :

" إنما اقتصر في ذلك على مجرد إرادة الإغواء دون نفسه حيث لم يقل إن كان الله يغويكم مبالغة في بيان غلبة جنابه عز وجل حيث دل ذلك على أن نصحه المقارن للاهتمام به لا يجديهم عند مجرد إرادة الله سبحانه لإغوائهم ، فكيف عند تحقيق ذلك وخلقه فيهم وزيادة كان للإشعار بتقدم إرادته تعالى زماناً كتقدمها رتبة ، وفيه دليل على أن إرادته تعالى يصح تعلقها بالإغواء وأن خلاف مراده غير واقع ، فأضاف نوح إغواءهم إلى الله سبحانه وتعالى إذ هو الهادي والمضل" . (٢)

وقال الشوكاني :

" معنى الإغواء في ظاهر لغة العرب هو الإضلال ، فمعنى الآية لا ينفعكم نصحي إن كان الله يريد أن يضلكم عن سبيل الرشاد ويخذلكم عن طريق الحق " . (٣)

وقال ابن عطية :

" وإذا كان هذا معنى اللفظة ، ففي الآية حجة على المعتزلة القائلين إن الضلال إنما هو من العبد " . (٤)

وأدلة أهل السنة ظاهرة وإليك استدلال المعتزلة وبيان فساد رأيهم .

استدلال المعتزلة :

استدلت المعتزلة على مذهبهم بأن كفر العبد وإغواءه إنما هو بقدرة العبد وإرادته ولا يتعلق بقدرة الله تعالى وإرادته قالوا : ظاهر الآية يدل على أنه تعالى إذا أراد إغواء القوم لم ينتفعوا بنصح الرسول وهذا مسلم فإنا نعرف أن الله تعالى لو أراد إغواء قوم لم ينفعهم نصح الناصحين لكن لم تقولوا أنتم ما قلتم إنه تعالى أراد هذا الإغواء وليس النزاع إلا فيه ؟ ولو تشبث الخصم بالجبر لزم إفحام النبي . (٥)

الرد على المعتزلة :

استدلالهم بهذه الآية فاسد لما يأتي :

أولاً : نقول إن نوحاً عليه السلام إنما ذكر هذا الكلام ليدل على أنه تعالى ما أغواهم بل فوض الاختيار إليهم ، وبيانه من وجهين :

الأول : أنه تعالى لو أراد إغواءهم لما بقى في النصح فائدة ، ولو لم يكن فيه فائدة لما أمره بنصح الكفار ، وأجمع المسلمون على أنه مأمور بدعوة الكفار ونصيحتهم ، فعلمنا أن هذا النصح لا يخلو من الفائدة ، وإن لم يكن خالياً عن الفائدة وجب القطع بأنه تعالى ما أغواهم .

الثاني : لو ثبت الحكم عليهم بأن الله تعالى أغواهم ، لصار هذا عذراً لهم في عدم الإتيان بالإيمان ولصار نوح منقطعاً في مناظرتهم ، لأنهم يقولون له : إنك سملت أن الله

---

(١)- مفاتيح الغيب جـ ١٨ ، ص ١٧٥ .

(٢)- إرشاد العقل السليم جـ ٣ ، ص ٢٠٥ .

(٣)- فتح القدير جـ ٢ ، ص ٦٩٢ .

(٤)- المحرر الوجيز جـ ٣ ، ص ١٦٧ .

(٥)- مفاتيح الغيب جـ ١٨ ، ص ١٧٥ ، واللباب جـ ١٠ ، ص ٤٧٨ .

تعالى إذا أغوانا فإنه لا يبقى في نصحك ، ولا في اجتهادك فائدة ، فإذا ادعيت أن الله تعالى أغوانا ، فقد جعلتنا مغلوبين ، فلم يلزمنا قبول هذه الدعوة ، فثبت أن الأمر لو كان كما قال الخصم ، لصار هذا حجة للكافر على نوح عليه السلام . فثبت بما ذكرنا أن الآية لا تدل على قول المجبرة .

ثانياً : أن استدلالهم بهذه الآية على عقيدتهم مخالف للأدلة القطعية من الكتاب والسنة وإجماع الصحابة وأهل الحل والعقد من السلف والخلف على إثبات قدرة الله عز وجل ومشيئته للإيمان والكفر والخير والشر .

الأدلة من القرآن :

الأدلة من القرآن كثيرة نذكر بعضاً منها للرد عليهم وتأييداً لمذهب السنة والجماعة:

١ – قوله تعالى: ﴿ **فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ** ﴾ (١)

قال بعض المفسرين " فيها تصريح بأن الكفر واقع بمشيئة الله تعالى " . (٢)

وقال البغوي " هذا يدل على أنه لم يشأ إيمان الكافر " . (٣)

٢ – وقوله تعالى: ﴿ **وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكُوا وَمَا جَعَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظاً وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ** ﴾ (٤)

ظاهر الآية يرد على المعتزلة ، لأن معناها أن إشراكهم ليس في الحقيقة بمشيئتهم وإنما هو بمشيئة الله تعالى . (٥)

وقال القرطبي : " نص على أن الشرك بمشيئته وهو إبطال لمذهب القدرية " . (٦)

٣ – وقوله تعالى: ﴿ **وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ** ﴾ (٧)

قال السدي : يحول بين المرء وقلبه فلا يستطيع أن يؤمن إلا بإذنه أي بمشيئته " (٨) كما قال تعالى: ﴿ **وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ** ﴾ (٩)

وقال القرطبي :

" إنه يقتضي النص منه على خلقه تعالى الكفر والإيمان ، فيحول بين المرء الكافر، وبين الإيمان الذي أمره به فلا يكتسبه إذا لم يُقدِره عليه بل أقدره على ضده وهو

---

(١)- سورة الأنعام آية ١٤٩ .

(٢)- انظر : الدر المصون جـ ٥ ، ص ٢٨٣ ، وهو قول أبو نصر القشيري في البحر المحيط جـ ٤ ، ص ٢٤٩ .

(٣)- معالم التنزيل للبغوي جـ ٢ ، ص ١٤٠ .

(٤)- سورة الأنعام آية ١٠٧ .

(٥)- البحر المحيط جـ ٤ ص ٣٤٦ .

(٦)- الجامع للقرطبي جـ ٧ ، ص ٦٠ .

(٧)- سورة الأنفال آية ٢٤ .

(٨)- الجامع للقرطبي جـ ٧ ، ص ٣٩٠ .

(٩)- المرجع السابق نفس الجزء والصفحة .

الكفر ، وهكذا المؤمن يحول بينه وبين الكفر ، بان بهذا النص أنه تعالى خالق لجميع اكتساب العباد خيرها وشرها " .

والآيات القرآنية في ذلك كثيرة منها :

قوله تعالى: ﴿ **وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَى وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلاً مَّا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللَّهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ** ﴾ (١)

وقوله تعالى: ﴿ **وَمَن يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَن تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً أُوْلَئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ** ﴾ (٢)

وقوله تعالى:﴿ **الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ** ﴾ (٣)

وقوله تعالى: ﴿ **قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْماً ضَالِّينَ** ﴾ (٤)

وقوله تعالى: ﴿ **وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لآمَنَ مَن فِي الأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعاً أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ** ﴾ (٥)

وقوله تعالى: ﴿ **أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلاَ تَذَكَّرُونَ**﴾ (٦)

فهذه الآيات الكريمة ، وغيرها تدل على أن الإيمان والكفر والفتنة والضلال والهداية والغواية ، والخير والشر بإرادة الله سبحانه وتعالى ، ومشيئته ، وأنه لا يقع في الكون إلا ما يريد .

أما الأدلة من السنة النبوية فكثيرة أيضاً منها :

١ – ما يدل على أن الله سبحانه وتعالى كتب الشقاوة ، أو السعادة على كل إنسان من يوم أن نفخ فيه الروح مثل قوله ﷺ " **إن أحدكم يجمع خلقه في بطن أمه أربعين يوماً نطفة ، ثم يكون علقة مثل ذلك ، ثم يكون مضغة مثل ذلك ، ثم يبعث الله ملكاً فيؤمر بأربع كلمات ، ويقال له : أكتب عمله ورزقه وأجله وشقي أو سعيد ، ثم ينفخ فيه الروح فإن الرجل منكم ليعمل حتى ما يكون بينه وبين الجنة إلا ذراع فيسبق عليه كتابه فيعمل بعمل أهل النار ، ويعمل حتى ما يكون بينه وبين النار إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل الجنة** " . (٧)

---

(١)- سورة الأنعام آية ١١١ .

(٢)- سورة المائدة آية ٤١ .

(٣)- سورة الأعراف آية ٤٣ .

(٤)- سورة المؤمنون آية ١٠٦

(٥)- سورة يونس آية ٩٩ .

(٦)- سورة الجاثية آية ٢٣ .

(٧)- أخرجه البخاري كتاب بدء الخلق باب ذكر الملائكة جـ ٣ ، ص ١١٧٤ رقم ٣٠٣٦ ، وكتاب الأنبياء باب خلق آدم وذريته جـ ٣ ، ص ١٢١٢ ، رقم ٣١٥٤ ، ومسلم كتاب القدر باب كيفية الخلق الآدمي في بطن أمه وكتابة رزقه وأجله وعمله وشقاوته وسعادته جـ ٤ ، ص ٢٠٣٦ رقم ٢٦٤٣ .

٢ – ومنها ما يدل على أن ما يقع في الكون إنما هو بمشيئة الله ، وما لم يقع إنما هو لعدم مشيئته مثل قوله ﷺ فيما أخرجه أبو داود وغيره عن عبد الحميد مولى بني هاشم أنه حدث أن أمه حدثته وكانت تخدم بعض بنات النبي ﷺ أن ابنة النبي حدثتها أن النبي ﷺ كان يعلمها فيقول : **" قولي حين تصبحين سبحان الله وبحمده لا قوة إلا بالله ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن ، أعلم أن الله على كل شيء قدير وأن الله قد أحاط بكل شيء علماً ، فإنه من قالهن حين يصبح حفظ حتى يمسى ومن قالهن حين يمسي حفظ حتى يصبح "** . (١)

٣ – ومنها ما يدل على أن الهداية والضلال بيد الله وحده ، فقد روي مسلم عن أبي ذر (٢) عن النبي ﷺ فيما روى عن الله تبارك وتعالى أنه **قال " يا عبادي كلكم ضال إلا من هديته "** . (٣)

قال النووي رحمه الله :

" وفي هذا الدليل لمذهب أصحابنا وسائر السنة أن المهتدي هو من هداه الله وبهدي الله اهتدى وبإرادة الله تعالى ذلك ، وأنه سبحانه وتعالى إنما أراد هداية بعض عباده وهم المهتدون ، ولم يرد هداية الآخرين ، ولو أرادها لاهتدوا خلافاً للمعتزلة في قولهم الفاسد أنه سبحانه وتعالى أراد هداية الجميع جل الله أن يريد ما لا يقع أو يقع ما لا يريد " . (٤)

وأختم هذه المسألة بكلام يحيى بن سعيد الذي قال : مازلت أسمع أصحابنا يقولون : إن أفعال العباد مخلوقة (٥) قال البخاري : " حركاتهم وأصواتهم واكتسابهم وكتابتهم مخلوقة " . (٦)

والإيمان بأن أفعال العباد مخلوقة لله تعالى ، لا ينافي أن يكون للعبد مشيئة في أفعاله الاختيارية وقدرة عليها ، لأن الشرع والواقع دالان على إثبات ذلك له ، وبهذا كله يظهر لنا أن أفعال العباد كلها من الكفر والإيمان ، والهداية والضلال ، والخير والشر ، كل ذلك من الله ، وهذا ما رجحه الآلوسي رحمه الله .

---

(١)- أخرجه أبو داود في سننه كتاب الأدب باب ما يقول إذا أصبح جـ ٤ ، ص ٣١٩ رقم ٥٠٧٥ ، والنسائي في سننه كتاب عمل اليوم والليلة جـ ٦ ، ص ٩٨٤٠ .

(٢)- أبي ذر : هو جندب بن جنادة بن سفيان بن غفار أبو ذر الغفاري ، أسلم والنبي بمكة أول الإسلام ، وهو أول من حيا رسول الله ﷺ بتحية الإسلام ، لما أسلم رجع إلى بلاد قومه فأقام بها حتى هاجر النبي فأتاه بالمدينة بعدما ذهبت بدر وأحد والخندق وصحبه إلى أن مات وكانت وفاته سنة إحدى وثلاثين وقيل غير ذلك ، وصلى عليه ابن مسعود ، الإصابة جـ ٧ ، ص ٦٠ ، وأسد الغابة جـ ١ ، ص ٤٠٩ .

(٣)- أخرجه مسلم كتب البر والصلة والآداب باب تحريم الظلم جـ ٤ ، ص ١٩٩٤ رقم ٢٥٧٧ .

(٤)- شرح النووي على صحيح مسلم جـ ٨ ، ص ١١٣ ، كتاب البر والصلة باب تحريم الظلم .

(٥)- أخرجه البخاري في خلق أفعال العباد ص ٤٢، والبيهقي في الأسماء والصفات ص ٢٦٠ ، تعليق محمد زاهر الكوثري ، مطبعة دار السعادة .

(٦)- خلق أفعال العباد ص ٤٢ .

المسألة الثانية

توجيه هم يوسف عليه السلام

في قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلا أَن رَّأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ ﴾ (١)

قال الإمام الآلوسي رحمه الله :

" **ولقد همت به** " قصدت المخالطة وعزمت عليها عزماً جازماً لا يلويها عنه صارف ، " وهم بها " أي مال إلى مخالطتها بمقتضى الطبيعة البشرية كميل الصائم في اليوم الحار إلى الماء البارد ، ومثل ذلك لا يكاد يدخل تحت التكليف لا أنه عليه السلام قصدها قصداً اختيارياً لأن ذلك أمر مذموم تنادي الآيات على عدم اتصافه عليه السلام به، هذا ما ذهب إليه بعض المحققين في معنى الآية وهو قول بإثبات هم له عليه السلام إلا أنه هم غير مذموم ، وفي البحر ، أنه لم يقع منه عليه السلام هم بها البتة بل هو منفي لوجود رؤية البرهان (٢) ، هذا وممن ذهب إلى تحقق الهم القبيح منه عليه السلام الواحدي فإنه قال : قال المفسرون الموثوق بعلمهم المرجوع إلى روايتهم الآخذون للتأويل عمن شاهد التنزيل : هم يوسف عليه السلام أيضاً بهذه المرأة هماً صحيحاً وجلس منها مجلس الرجل من المرأة ، فلما رأى البرهان من ربه زال كل شهوة عنه قال أبو جعفر الباقر ، رضي الله تعالى عنه بإسناده عن علي كرم الله تعالى وجهه أنه قال " طمعت فيه وطمع فيها " وكان طمعه فيها أن هم أن يحل التكة وعن ابن عباس أنه حل الهيمان وجلس منها مجلس الخائن ، وعنه أيضاً أنها استلقت له وقعد بين رجليها ينزع ثيابه ، (٣) وتعقب الإمام الرازي ما ذكر بأن هذه المعصية التي نسبوها إلى يوسف وحاشاه من أقبح المعاصي وأنكرها ، ومثلها لو نسب إلى أفسق خلق الله تعالى وأبعدهم عن كل خير لا ستنكف منه ، فكيف يجوز إسناده إلى هذا الصديق الكريم . (٤) وقد ذكر الطيبي (٥) طيب الله ثراه بعد أن

---

(١)- سورة يوسف الآية ٢٤ .
(٢)- البحر المحيط جـ ٦ ، ص ٢٥٧ .
(٣)- انظر : الأقوال في مفاتيح الغيب للرازي جـ ١٨ ، ص ٩٢ .
(٤)- مفاتيح الغيب جـ ١٨ ، ص ٩٣ .
(٥)- الطيبي : الحسن بن محمد بن عبد الله الطيبي ، شارح الكشاف ، العلامة في المعقول والعربية والمعاني والبيان ، قال ابن حجر : كان آية في استخراج الدقائق من القرآن والسنن ، مقبلاً على نشر العلم ، متواضعاً حسن المعتقد ، شديد الرد على الفلاسفة مظهراً فضائحهم ، شديد الحب لله ورسوله ، كثير الحياء ، ملازماً لاشتغال الطلبة في العلوم الإسلامية بغير طمع بل يجديهم ويعينهم ويعير الكتب النفسية لأهل بلده وغيرهم من يعرف ومن لا يعرف ، وكان ذا ثروة من الإرث والتجارة فلم يزل ينفقه في وجوه الخيرات حتى صار في آخر عمره فقيراً ، صنف شرح الكشاف وتفسير القرآن ، مات وهو ينتظر الصلاة في الثالث عشر من شعبان سنة ثلاث وأربعين وسبعمائة . انظر : شذرات الذهب جـ ٣ ، ص ١٣٧ ، والدرر الكامنة ،جـ ٢ ، ص ١٨٦ ، وطبقات الشافعية الكبرى جـ ١ ، ص ٦٧ ، والأعلام للزركلي جـ ٢ ، ص ٢٥٥ .

نقل ما حكاه محي السنة عن بعض أهل الحقائق من أهم الهم همان : هم ثابت وهو ما كان معه عزم وعقد ورضا مثل هم امرأة العزيز وهم عارض وهو الخطرة وحديث النفس من غير اختيار ولا عزم مثل هم يوسف عليه السلام ، وأن هذا التفسير هو الذي يجب أن نذهب إليه ونتخذه مذهباً ، وإن نقل المفسرون ما نقلوا لأن متابعة النص القاطع وبراءة المعصوم عن تلك الرذيلة وإحالة التقصير على الرواة أولى بالمصير إليه ، على أن أساطين النقل المتقنين لم يرووا في ذلك شيئاً مرفوعاً في كتبهم ، وجل تلك الروايات بل كلها مأخوذة من مسألة أهل الكتاب أهـ . نعم قد صحح الحاكم بعضاً من الروايات التي استند إليها من نسب تلك الشنيعة إليه عليه السلام لكن تصحيح الحاكم محكوم عليه بعدم الاعتبار عند ذوي الاعتبار . وفي إرشاد العقل السليم بعد نقل نبذة منها إن كل ذلك إلا خرافات وأباطيل تمجها الآذان وتردها العقول والأذهان ، ويل لمن لاكها ولفقها أو سمعها وصدقها [١] ثم إن الإمام عليه الرحمة ذكر في تفسير الآية الكريمة بعد أن منع دلالتها على الهم ما حاصله : إنا سلمنا أن الهم قد حصل إلا أن نقول : لا بد من إضمار فعل مخصوص يجعل متعلق الهم إذ الذوات لا تصلح ولا يتعين ما زعموه من إيقاع الفاحشة بها ، بل نضمره شيئاً آخر يغاير ما أضمروه ، فتقول : المراد هم بدفعها عن نفسه ومنعها عن ذلك القبيح ، لأنه الذي يستدعيه حاله عليه السلام ، وقد جاء هممت بفلان أي قصدته ودفعته [٢] وبالجملة لا ينبغي التعويل على ما شاع في الأخبار والعدول عما ذهب إليه المحققون الأخيار ، وإياك والهم بنسبة تلك الشنيعة إلى ذلك الجناب بعد أن كشف الله سبحانه عن بصر بصيرتك فرأيت برهان ربك بلا حجاب . [٣]

المعنى الإجمالي للآية :

همت امرأة العزيز بمخالطة يوسف عليه السلام وكان الشأن أن يهم بها وأن يقصد مخالطتها ، وكان همه عليه السلام بها ميل الطبع ومنازعة الشهوة لا القصد الاختياري،وفي هذه الساعة الحرجة رأى برهان ربه وأراد الفرار من سورة الشهوة ، وليس في ذلك ما يمس النبوة ، بل هو يعليها ، فليس الفضل لمن لا يزني وهو غير قادر ، إنما الفضل لمن كف عند منازعة الشهوة ومساورتها ، وردها والاستقامة على الطريق.[٤]

دراسة النص :

المتدبر لنص الإمام الآلوسي يظهر له أن الآلوسي قد حكى الأقوال المذكورة في هم يوسف عليه السلام وإليك بيانها :

القول الأول : أنه كان هماً من جنس همها بمقتضى الطبيعة البشرية لا أنه عليه السلام قصدها قصداً اختيارياً وهو قول الحسن وسعيد بن جبير والضحاك والسدي. [٥]

---

(١)- إرشاد العقل السليم جـ ٣ ، ص ٢٦٦ .

(٢)- مفاتيح الغيب جـ ١٨ ، ص ٩٥ .

(٣)- روح المعاني جـ ١٢ ، ص ٣٢١ .

(٤)- زهرة التفاسير جـ ٧ ، ص ٣٨١٦ .

(٥)- زاد المسير جـ ٤ ، ص ٢٠٤ .

القول الثاني : أنه كان همّاً حقيقياً وإلى ذلك ذهب الواحدي ، وابن عباس وعلي كرم الله وجهه. (١)

القول الثالث : أنه لم يقع منه هم أصلاً وهو قول أبي حيان . (٢)

القول الرابع : أنه عليه السلام هم بدفعها عن نفسه وهو قول الرازي . (٣)

ثم اختار الآلوسي القول الأول بأنه كان همّاً من جنس همها بمقتضى الطبيعة البشرية لا أنه عليه السلام قصدها قصداً اختيارياً وهو اختيار رشيد وترجيح سديد قائم على القاعدة التفسيرية :

(القول الذي يعظم مقام النبوة ولا ينسب إليها مالا يليق أولى بتفسير الآية) .

وقبل أن نتعرض لترجيح رأي الآلوسي نستعرض الآراء الأخرى والرد عليها .

القول الأول : من ذهب إلى أنه عليه السلام هم بها وقصدها همّاً صحيحاً وجلس منها مجلس الرجل من المرأة ، ولم يمنعه من ذلك إلا جبريل لما جاءه في صورة أبيه يعقوب عليه السلام أو خرجت له يد مكتوب فيها آيات من كتاب الله تعالى ، ثم طارت شهوته فخرجت من أنامله ، وأن كل ولد يعقوب عليه السلام ولد له اثنا عشر ولداً ما عدا يوسف عليه السلام بسبب تلك الشهوة التي خرجت لم يولد له إلا غلامان . (٤)

وهذا القول فيه نظر من عدة أوجه :

١ – أنه لم يرفع منه شيء إلى النبي ﷺ وإنما هو مأخوذ عن بني إسرائيل الذين لا يرون عصمة الأنبياء عليهم السلام .

٢ – أنه متناقض في نفسه .

٣ – أنه مناف لعصمة الأنبياء المعلوم ثبوتها شرعاً وعقلاً .

٤ – أنه يتعارض مع ما ثبت في القرآن الكريم من تبرئة الله ليوسف عليه السلام وشهادة امرأة العزيز ، وشاهد من أهلها ، والعزيز ، وشهادة الشيطان بذلك ، والنسوة اللاتي قطعن أيديهن . (٥)

فأصحاب هذا الرأي ما ذكروا آية يحتج بها ولا حديثاً صحيحاً يعول عليه في تصحيح هذه المقالة وهذا كله مما لا يحل أن يقال ويدل على فساده ما قالوا وجوه :

أحدهما: قوله تعالى حكاية عن يوسف عليه السلام ﴿ **هِيَ رَاوَدَتْنِي عَن نَّفْسِي** ﴾ (٦)

---

(١)- جامع البيان للطبري جـ ١٢ ، ص ٢٤١ .

(٢)- البحر المحيط جـ ٦ ، ص ٢٥٧ .

(٣)- مفاتيح الغيب جـ ١٨ ، ص ٩٥ .

(٤)- انظر : جامع البيان جـ ١٢ ، ص ٢٤٤ ، ٢٤٥ .

(٥)- عصمة الأنبياء في الكتاب والسنة والرد على الشبهات الواردة عليها للشيخ محمد الخضر الناجي ضيف الله ص ١١٦ ، ط دار الكتب القطرية ١٩٩١م ، والإسرائيليات والموضوعات في كتب التفسير للدكتور / محمد محمد أبي شهبة ص ٢٢٠ ، ٢٢٥ ، ط مكتبة السنة ، الطبعة الرابعة ١٤٠٨هـ .

(٦)- سورة يوسف آية ٢٦ .

ثانيهاً : قوله تعالى: ﴿ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ ﴾ (١)
ثالثها : قوله تعالى حكاية عنها ﴿ ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ﴾ (٢)
رابعها : قولهن: ﴿ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوءٍ ﴾ (٣)
خامسها : قولها: ﴿ الآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ﴾ (٤)
فهذا كله دليل على أنه لم يقع منه شيء من ذلك .

القول الثاني : القول بأنه هم بضربها ، أو هم بدفعها عن نفسه ، فكل ذلك غير ظاهر ، بل هو بعيد من الظاهر ولا دليل عليه . (٥)
وتعقبه الإمام الرازي بأن هذا القول يرده ما يأتي .

الأول : أنه تعالى أعلم يوسف عليه السلام أنه لو هم بدفعها لقتلته أو لكانت تأمر الحاضرين بقتله ، فأعلمه الله تعالى أن الامتناع من ضربها أولى صوناً للنفس عن الهلاك.

الثاني : أنه عليه السلام لو اشتغل بدفعها عن نفسه فربما تعلقت به ، فكان يتمزق ثوبه من قدام ، وكان في علم الله تعالى أن الشاهد يشهد بأن ثوبه لو تمزق من قدام لكان يوسف هو الخائن ، ولو كان ثوبه ممزقاً من خلف لكانت المرأة هي الخائنة ، فالله تعالى أعلمه بهذا المعنى ، فلا جرم لم يشتغل بدفعها عن نفسه بل ولى هارباً عنها ، حتى صارت شهادة الشاهد حجة له على براءته عن المعصية (٦) فهذا القول وما سبقه مما لا يصح نسبته إلى يوسف عليه السلام .

أما القولان الآخر فهما مما يستساغ قبوله متمشياً مع عصمة الأنبياء وقواعد اللغة العربية ونستعرض توجيه الهم في كل منها كالآتي :

القول الثالث : أن يوسف عليه السلام لم يقع منه هم أصلاً ، بل هو منفي عنه لوجود البرهان ، وهذا القول هو أجرى الأقوال على قواعد اللغة العربية ، لأن الغالب في القرآن الكريم وفي كلام العرب : أن الجواب المحذوف يذكر قبله ما يدل عليه ، كقوله تعالى: ﴿ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ ﴾(٧) أي إن كنتم مسلمين فعليه توكلوا ، وعلى هذا القول فمعنى الآية " وهم بها لولا أن رأى برهان ربه " أي لولا أن رآه لهم بها ، فما قبل لولا هو دليل الجواب المحذوف ، كما هو الغالب في القرآن الكريم واللغة ، ونظير ذلك

---

(١)- سورة يوسف آية ٢٤ .
(٢)- سورة يوسف آية ٥١ .
(٣)- سورة يوسف آية ٥١ .
(٤)- سورة يوسف آية ٥١ .
(٥)- أضواء البيان جـ ٣ ، ص ٦٠ .
(٦)- مفاتيح الغيب جـ ١٨ ، ص ٩٥ .
(٧)- سورة يونس آية ٨٤ .

قوله تعالى: " **إن كادت لتبدي به لولا أن ربطنا على قلبها** " [١] فما قبل لولا دليل الجواب ، أي لولا أن ربطنا على قلبها لكادت تبدي به . [٢]

وفي هذا يقول أبو حيان :

" والذي أختاره أن يوسف عليه السلام لم يقع منه هم البتة ، بل هو منفي لوجود رؤية البرهان ، كما تقول : : لقد قارفت لولا أن عصمك الله ، ولا نقول : إن جواب لولا متقدم عليها ، وإن كان لا يقوم دليل على امتناع ذلك ، بل صريح أدوات الشرط العاملة مختلف في جواز تقديم أجوبتها عليها ، وقد ذهب إلى ذلك الكوفيون ، ومن أعلام البصريين أبو زيد الأنصاري ، وأبو العباس المبرد [٣] بل نقول : إن جواب لولا محذوف لدلالة ما قبله عليه ، كما يقول جمهور البصريين في قول العرب (أنت ظالم إن فعلت) فيقدرونه : إن فعلت فأنت ظالم ، ولا يدل قوله " أنت ظالم " على ثبوت الظلم ، بل هو مثبت على تقدير وجود الفعل ، وكذلك هذا التقدير لولا أن رأى برهان ربه لهم بها ، فكان وجود الهم على تقدير انتفاء رؤية البرهان ، لكنه وجد رؤية البرهان فانتفى الهم . [٤]

وبهذا الوجه يظهر أنه لا شبهة في الآية على عصمة سيدنا يوسف عليه السلام .

القول الرابع : وهو الذي اختاره الآلوسي من كون الهم هو الميل الطبيعي والشهوة الغريزية وهذا لا معصية فيه ، لأنه أمر جبلي لا يتعلق به التكليف ، كما في الحديث عنه ﷺ أنه كان يقسم بين نسائه فيعدل ثم يقول : " **اللهم هذا قسمي فيما أملك ، فلا تلمني فيما لا أملك** " [٥] يعني " ميل القلب الطبيعي ، ومثال هذا ميل الصائم بطبعه إلى الماء البارد مع أن تقواه تمنعه من الشرب وهو صائم ، كما قال تعالى: ﴿ **وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى * فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى** ﴾ [٦]

(١)- سورة القصص آية ١٠ .

(٢)- أضواء البيان جـ ٣ ، ص ٦٠ .

(٣)- المبرد : إمام النحو أبو العباس ، محمد بن يزيد الأزدي ، النحوي ، صاحب الكامل أخذ عن أبي عثمان المازني ، وأبي حاتم السجستاني ، كان إماماً علامة جميلاً وسيماً ، فصيحاً مفوهاً ، موثقاً ، صاحب نوادر وطرف ، وكان آية في النحو ، مات أول سنة ست وثمانين ومائتين ، انظر : سير أعلام النبلاء جـ ١٣ ، ص ٥٧٦ .

(٤)- البحر المحيط جـ ٦ ، ص ٢٥٧ .

(٥)- أخرجه أبو داود في كتاب النكاح باب في القسم بين النساء جـ ٢ ، ص ٢٤٩ رقم ٢١٣٤ ، والترمذي في كتاب النكاح باب ٤٢ ما جاء في التسوية بين الضرائر جـ ٣ ، ص ٤٣٧ رقم ١١٤ وابن ماجة في كتاب النكاح باب ٤٨ القسمة بين النساء جـ ١ ، ص ٦٣٤ رقم ١٩٧١ والحاكم في المستدرك جـ ٢ ، ص ١٨٧ وقال صحيح على شرط مسلم ، ووافقه الذهبي .

(٦)- سورة النازعات آية ٤٠ ، ٤١ .

وهم بني حارثة وبني سلمة بالفرار يوم أحد ، كهم يوسف هذا بدليل قوله: ﴿ **إِذْ هَمَّت طَّائِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا وَاللَّهُ وَلِيُّهُمَا**﴾ لأن قوله " والله وليهما " يدل على أن ذلك الهم ليس معصية . (١)

فالعبد غير مأخوذ بحديث النفس وخطرة القلب مالم يتكلم أو يعمل به ويدل على صحة هذا ما روي عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال " يقول الله تبارك وتعالى " **إذا هم عبدي بسيئة فلا تكتبوها عليه فإن عملها فاكتبوها عليه سيئة واحدة ، وإذا هم بحسنة فلم يعملها فاكتبوها له حسنة فإن عملها فاكتبوها له عشرة** " . (٢)

قال القاضي عياض : (٣)

" فعلى مذهب كثير من الفقهاء المحدثين أن هم النفس لا يؤاخذ به وليس سيئة فلا معصية في هم يوسف وأما على مذهب المحققين من الفقهاء والمتكلمين فإن الهم إذا وطنت عليه النفس كان سيئة ، وأما لم توطن عليه النفس من همومها وخواطرها فهو المعفو عنه ، هذا هو الحق فيكون هم يوسف من هذا " . (٤)

وقال الإمام الرازي :

أن يوسف عليه السلام كان بريئاً عن العمل الباطل والهم المحرم وهذا قول المحققين من المفسرين والمتكلمين وبه نقول وعنه نذب .

وهذه المعصية التي نسبوها إلى يوسف عليه السلام لو نسبت إلى أفسق خلق الله وأبعدهم عن كل خير لاستنكف عنه فكيف يجوز إسنادها إلى الصديق الكريم ، ثم إنه تعالى قال " كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء " وذلك يدل على أن ماهية السوء والفحشاء مصروفة عنه ، ولا شك أن المعصية التي نسبوها إليه أعظم أنواع المعاصي ، وأيضاً فالآية تدل على قولنا من وجه آخر وذلك لأنا نقول هب أن هذه الآية لا تدل على نفي هذه المعصية عنه إلا أنه لا شك أنها تفيد المدح العظيم والثناء البالغ فلا يليق بحكمة الله تعالى أن يحكي عن إنسان إقدامه على معصية عظيمة ثم إنه يمدحه ويثني عليه . وكذلك أن الأنبياء عليهم السلام متى صدرت منهم زلة أو هفوة استعظموا ذلك وأتبعوها إظهار الندامة والتوبة والتواضع ، ولو كان يوسف أقدم على هذه الكبيرة لكان من المحال ألا يتبعها بالتوبة والاستغفار ، ولو أتى بالتوبة لحكى الله تعالى عنه وحيث لم يوجد شيء

---

(١)- أضواء البيان جـ ٣ ، ص ٥٩ .

(٢)- أخرجه البخاري في كتاب الرقاق باب ٣١ من هم بحسنة أو سيئة جـ ١١ ، ص ٣٣١ رقم ٦٤٩١ .

(٣)- القاضي عياض هو : الإمام الحافظ شيخ الإسلام أبو الفضل عياض بن موسى بن عياض بن موسى بن عياض اليحصبي الأندلسي ، استبحر من العلوم ، وجمع وألف وسارت بتصانيفه الركبان ، واشتهر اسمه في الآفاق ، توفى سنة أربع وأربعين وخمسمائة ، انظر :سير أعلام النبلاء جـ ٢٠ ، ص ٢١٢ .

(٤)- شرح الشفا للقاضي أبي الفضل عياض بن موسى اليحصبي المتوفى ٥٤٤هـ ، جـ ٢ ، ص ٢٩٧ ، ط دار الكتب العلمية ، بيروت .

من ذلك علمنا أنه ما صدرت عنه هذه الواقعة وأيضاً أن كل من كان له تعلق بتلك الواقعة فقد شهد ببراءة يوسف عليه السلام من المعصية . (١)

وقال القاسمي : (٢)

" فاتضح أنه لا شبهة فيها على عصمة يوسف عليه السلام فإن الأنبياء ليسوا بمعصومين من حديث النفس ، وخواطر الشهوة الجبلية ، ولكنهم معصومون من طاعتها والانقياد إليها ، وحقيقة عصمة الأنبياء هي نزاهتهم وبعدهم عن ارتكاب الفواحش والمنكرات التي بعثوا بتزكية الناس منها ، لئلا يكونوا قدوة سيئة ، مفسدين للأخلاق والآداب ، وحجة للسفهاء على انتهاك حرمات الشرائع ، وليس معناها أنهم آلهة منزهون عن جميع ما يقتضيه الطبع البشري " . (٣)

فيتضح من هذا كله أن المراد بالهم في الآية خطور الشيء بالبال أو ميل الطبع كالصائم في الصيف يري الماء البارد فتحمله نفسه على الميل إليه وطلب شربه ولكن يمنعه دينه عنه ، وكالمرأة الفائقة حسناً وجمالاً تتهيأ للشاب النامي القوي فتقع بين الشهوة والعفة ، فالهم هنا عبارة عن جواذب الطبيعة ، وليس في ذلك ما يمس النبوة بل هو يعليها، فليس الفضل لمن يزني وهو غير قادر ، إنما الفضل لمن كف عند منازعة الشهوة ومساورتها وردها والاستقامة على الطريق ولا يسعنا إلا أن نقول كما قال الإمام الرازي:

" نقول لهؤلاء الجهال الذين نسبوا إلى يوسف هذه الفضيحة إن كانوا من أتباع دين الله فليقبلوا شهادة الله تعالى على طهارته ، وإن كانوا من أتباع إبليس وجنوده فليقبلوا شهادة إبليس على طهارته " . (٤)

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية :

" القول بأن الأنبياء معصمون عن الكبائر دون الصغائر هو قول أكثر العلماء وجميع الطوائف حتى إنه قول أكثر أهل الكلام كما ذكر أبو الحسن الآمدى (٥) أن هذا قول

---

(١)- مفاتيح الغيب جـ ١٨ ، ص ٩٣ .

(٢)- القاسمي : هو محمد جمال الدين بن محمد سعيد بن قاسم القاسمي الدمشقي ، إمام الشام في عصره ، سني العقيدة ، لا يقول بالتقليد ، تزيد مؤلفاته عن السبعين منها : محاسن التأويل في التفسير ، توفى في دمشق سنة اثنتين وثلاثين وثلثمائة وألف ، انظر : سير أعلام النبلاء جـ ٢ ، ص ١٣٥ .

(٣)- محاسن التأويل جـ ٩ ، ص ٢١٤ .

(٤)- مفاتيح الغيب جـ ١٨ ، ص ٩٣ .

(٥)- الآمدى : أبو الحسن علي بن أبي علي محمد الحنبلي ، ثم الشافعي المتكلم العلامة ، صاحب التصانيف العقلية ، ولد بعد الخمسين وخمسمائة بآمد ، قرأ القراءات والفقه ، وتفقه للشافعي على ابن فضلان برع في الخلاف ، وحفظ الكثير ، وتفنن في علم النظر ، توفي سنة إحدى وثلاثين وستمائة في ثالث صفر(انظر : العبر في خبر من غبر للذهبي جـ ٥ ، ص ١٢٤ ، ولسان الميزان جـ ٣ ، ص ١٣٤) .

أكثر الأشعرية [١] وهو أيضاً قول أكثر أهل التفسير والحديث والفقهاء ، بل لم ينقل عن السلف والأئمة والصحابة والتابعين وتابعيهم إلا ما يوافق هذا القول " . [٢]

فالأنبياء منزهون عن الكبائر ، فضلاً عن الفواحش والفسق والفجور ، وما ذكر الله تعالى عن نبي كبيرة ، فضلاً عن الفاحشة ، وعلى هذا إجماع سلف الأمة وجماهيرها ويلحق بالكبائر في تنزيه الأنبياء وعصمتهم منها ، ما يُرزي بمناصبهم كرذائل الأخلاق والدناءات من الصغائر ، وما يسقط المروءة والحشمة . [٣]

وبهذا يظهر لنا أن أصح الأقوال في تفسير الآية القول بأنه لم يقع منه هم أصلاً ، أو يكون المراد بالهم الخاطر القلبي الذي صرف عنه وازع التقوى ، وأن يوسف عليه السلام برئ من الوقوع فيما لا ينبغي وهو ما رجحه الآلوسي .

---

(١)- انظر: كلام الأمدي في الإحكام جـ ١ ، ص ١٥٧ .

(٢)- مجموع الفتاوي جـ ٤ ، ص ٣١٩ .

(٣)- الشفا جـ ٢ ، ص ٢٥٧ ، ومنهاج السنة جـ ٢ ، ص ٤١٨ .

obeikandl.com

المسألة الثالثة
الاعتقاد بأن مرتكب الكبيرة في مشيئة الله يوم القيامة

في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴾ (١)

قال الإمام الآلوسي رحمه الله :

ظاهر الآية يقتضي حصول الجنات والعيون لكل من اتقى الله عن ذنب واحد إلا أن الأمة مجمعة على أن التقوى عن الكفر شرط في حصول هذا الحكم وهذا الحكم المذكور يتناول جميع القائلين لا إله إلا الله محمد رسول الله ولو كانوا من أهل المعصية ، وإخراج العصاة من النار ثابت بنصوص آخر ، وكذا إدخال التائبين الجنة بل غيرهم أيضاً ، فلا يلزم القائل بذلك القول بما عليه المعتزلة من تخليد أصحاب الكبائر كما لا يخفى . (٢)

المعنى الإجمالي للآية :

إن الذين اتقوا الله وخافوا عقابه ، فأطاعوا أوامره واجتنبوا نواهيه ، يمتعون في جنات ذات بهجة للناظرين ، فيها من كل فاكهة وما تشتهي الأنفس وتلذ الأعين ، وما لم يخطر على قلب بشر ، وفيها الأنهار التي تجري من العيون الوفيرة بالماء . (٣)

دراسة النص :

الملاحظ في هذا النص أن الإمام الآلوسي لخص مذهبي أهل السنة والمعتزلة في أصحاب المعصية وهما كالآتي :

القول الأول : أن العصاة من المؤمنين من مرتكبي الكبيرة يدخلون الجنة بمشيئة الله تعالى وهو مذهب أهل السنة والجماعة . (٤)

القول الثاني : أن مرتكب الكبيرة مخلد في النار وهو قول المعتزلة . (٥)

---

(١)- سورة الحجر الآية ٤٥ .

(٢)- روح المعاني جـ ١٤ ، ص ٨٣ .

(٣)- زهرة التفاسير جـ ٨ ، ص ٤٠٩١ .

(٤)- انظر حول مقالة أهل السنة والجماعة : رسالة أهل الثغر للإمام أبي الحسن علي بن إسماعيل الأشعري ص ٩٣ – ٩٥ ، تحقيق د/ محمد السيد الجليند ، مطبعة التقدم ، ١٩٨٧ ، وعقيدة السلف وأصحاب الحديث لأبي عثمان إسماعيل بن عبد الرحمن الصابوني جـ ١ ، ص ١٢٤ ، ١٢٥- طبعة إدارة الطباعة المنيرية ضمن عدة رسائل ، بدون ، وشرح العقيدة الطحاوية في العقيدة السلفية للقاضي صدر الدين علي بن محمد بن أبي العز الحنفي المتوفى ٧٩٢هـ ص ١٢٤ – ١٢٥، مطبعة الامتياز .

(٥)- انظر في مقالة المعتزلة : شرح الأصول الخمسة للقاضي عبد الجبار بن أحمد المتوفى ٤١٥هـ تحقيق د/ عبد الكريم عثمان ص ١٣٩ ، ٦٧٤ ، ط مكتبة وهبة الطبعة الأولي ١٣٨٤ هـ - ١٩٦٥ م ، والإيمان لأبي القاسم بن سلام المتوفى ٢٢٤هـ ص ٤٩ ، ٥٠ ، تحقيق محمد ناصر الدين الألباني ، ط المكتب الإسلامي ، الطبعة الثانية ١٤٠٣ هـ ومقالات الإسلاميين جـ ١ ، ص ٢٠٤ .

وقد اختار الإمام الآلوسي مذهب أهل السنة الجامع بين الوعد والوعيد بأن مرتكب الكبيرة [١] من أهل التوحيد لا يخلد في النار بل إما يعذبه الله في النار بما أوعده على ما اكتسب ثم يدخله الجنة بعد ذلك خالداً أبداً ، وإما يدخله الجنة ابتداءً من غير أن يعذبه في النار إما بشفاعة أو غير ذلك من أسباب عفو الله ورحمته سبحانه وقد ذكر شيخ الإسلام ابن تيمية :

" أن فاعل السيئات تسقط عنه عقوبة جهنم بنحو عشرة أسباب هي : التوبة والاستغفار والحسنات الماحية والمصائب الدنوية ودعاء المؤمنين واستغفارهم له وعذاب القبر وما يهدى إليه بعد الموت من ثواب صدقة ونحوها وأهوال يوم القيامة وشدائده والقصاص يوم القيامة وشفاعة الشافعين ورحمة أرحم الراحمين . [٢]

وسبب الخلاف بين الفرق الإسلامية في مسألة حكم مرتكب الكبيرة هو :

ورود نصوص من القرآن الكريم والسنة النبوية تغلظ على أهل الجرائم والذنوب منها:

١ – قوله تعالى: ﴿ **بَلَى مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ** ﴾ [٣]

٢ – وقوله جل شأنه: ﴿ **وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَاراً خَالِداً فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُّهِينٌ** ﴾ [٤]

٣ – وعن حذيفة أن النبي ﷺ **قال " لا يدخل الجنة قتات "** . [٥]

٤ – وعن جبير بن مطعم [٦] أن النبي ﷺ **قال " لا يدخل الجنة قاطع "**. [٧]

٥ – وعن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال **" لا يدخل الجنة من لا يأمن جاره بوائقه "** . [٨]

---

(١)- تعريف الكبيرة : هي كل معصية يوجد فيها أحد في الدنيا ، أو توعد بنار في الآخرة ، أو لعنة، أو غضب أو نحو هذا ، وهو قول الجمهور ، وهو الراجح ، انظر : مجموع الفتاوى جـ ١١ ، ص ٦٥٠ – ٦٥٤ ، وشرح الطحاوية ص ٣٠٥ .

(٢)- انظر : مجموع الفتاوى جـ ٧ ، ص ٤٨٧ – ٥٠١ ، ومنهاج السنة النبوية جـ ٦ ، ص ٢٠٥ ، ٢٣٩ .

(٣)- سورة البقرة آية ٨١ .

(٤)- سورة النساء آية ١٤ .

(٥)- أخرجه البخاري في كتاب الأدب باب ما يكره من النميمة جـ ١٠ ، ص ٤٨٧ رقم ٦٠٥٦ ، ومسلم في كتاب الإيمان باب غلظ تحريم النميمة جـ ١ ، ص ١٠١ .

(٦)- جبير بن مطعم : هو جبير بن مطعم بن عدي بن نوفل بن عبد مناف القرشي ، كان من حلماء قريش وساداتهم ، وكان يؤخذ عنه النسب لقريش وللعرب قاطبة ، وكان يقول أخذت النسب عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه ، روى عنه سليمان بن سرد وعبد الرحمن بن أزهر ، مات سنة سبع وخمسين وقيل غير ذلك ، الإصابة جـ ١ ، ص ٢٣٥ ، و أسد الغابة جـ ١ ، ص ٣٦٩ .

(٧)- أخرجه البخاري في كتاب الأدب باب إثم القاطع جـ ١٠ ، ص ٤٢٨ رقم ٥٩٨٤ .

(٨)- أخرجه مسلم في كتاب الإيمان باب تحريم إيذاء الجار جـ ١ ، ص ٦٨ ، رقم ٤٦ .

obeikandi.com

٦ – وعن أبي بكرة [١] أن النبي ﷺ **قال " من ادعى إلى غير أبيه وهو يعلم أنه غير أبيه فالجنة عليه حرام "** . [٢]

٧ – وعن عبد الله بن عمرو [٣] أن النبي ﷺ **قال " من قتل نفساً معاهدة بغير حقها حرم الله عليه الجنة "** . [٤]

٨ – وعن ابن مسعود أن النبي ﷺ **قال " لا يدخل النار أحد في قلبه مثقال حبة خردل من إيمان ، ولا يدخل الجنة أحد في قلبه مثقال حبة خردل من كبرياء "** . [٥]

إلى غير ذلك من الآيات والأحاديث التي تحرم الجنة ، أو توجب النار لمن ارتكب معصية من المعاصي .

وفي مقابل هذه النصوص وردت نصوص أخرى كثيرة في بيان سعة رحمة الله ، وعظيم مغفرته ، ومن هذه النصوص :

١ – قوله تعالى: **﴿ قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ لاَ تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّـهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾** [٦]

٢ – وعن عبادة بن الصامت [٧] أن النبي ﷺ **قال " من شهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله حرمه الله على النار "** . [٨]

---

(١)- أبي بكرة : هو نفيع بن الحارث بن كلدة بن أبي سلمة بن ثقيف الثقفي ، مشهور بكنيته ، كان من فضلاء الصحابة وصالحيهم ، وكان تدلى إلى النبي ﷺ من حصن الطائف ببكرة فاشتهر بأبي بكرة ، كان أبو بكرة كثير العبادة حتى مات وكان أولاده أشرافاً في البصرة بكثرة المال والعلم والولايات ، توفى أبي بكرة سنة إحدى وخمسين وقيل غير ذلك . الإصابة جـ ٦ ، ص ٢٥٢ ، وأسد الغابة جـ ٥ ، ص ٣٨ .

(٢)- أخرجه مسلم في كتاب الإيمان بيان حال من رغب عن أبيه وهو يعلم جـ ١ ، ص ٨٠ .

(٣)- عبد الله بن عمرو : هو عبد الله بن عمرو بن العاص بن لؤي القرشي يكنى أبا محمد ، وكان أصغر من أبيه باثنتي عشرة سنة ، أسلم قبل أبيه وكان فاضلاً عالماً قرأ القرآن والكتب المتقدمة ، وشهد مع أبيه فتح الشام وصفين ، توفى عبد الله سنة ثلاث وستين قيل غير ذلك . الإصابة جـ ٤ ، ص ١١١ ، وأسد الغابة جـ ٣ ، ص ٢٤٤ .

(٤)- أخرجه البخاري في كتاب الديات باب إثم من قتل ذمياً بغير جرم جـ ١٢ ، ص ٢٧٠ ، رقم ٦٩١٤ .

(٥)- أخرجه مسلم في كتاب الإيمان باب تحريم الكبر وبيانه جـ ١ ، ص ٩٣ .

(٦)- سورة الزمر آية ٥٣ .

(٧)- عبادة بن الصامت : هو عبادة بن قيس بن عمرو بن عوف الخزرجي الأنصاري ، أحد النقباء ليلة العقبة، شهد بدراً وما بعدها ، أرسله عمر إلى فلسطين ليعلم أهلها القرآن فأقام بها إلى أن مات سنة أربع وثلاثين وكان رضي الله عنه طويلاً جسيماً ، روى عن النبي كثيراً ، انظر : تهذيب التهذيب جـ ١، ص ٤٣٠ ، وسير أعلام النبلاء جـ ٢ ، ص ٥ – ١١ .

(٨)- أخرجه مسلم في كتاب الإيمان باب الدليل على أن من مات على التوحيد دخل الجنة ، جـ ١، ص ٥٧ ، رقم ٢٩ .

٣ – وعن عثمان [١] أن النبيﷺ **قال" من مات وهو يعلم أن لا إله إلا الله دخل الجنة"** [٢]

٤ – وعن أبي موسى أن النبي ﷺ **قال " من صلى البردين دخل الجنة "** [٣]

٥ – وعن أبي ذر أن النبي ﷺ قال **" من مات لا يشرك بالله شيئاً دخل الجنة ، قلت : وإن زنى وإن سرق ؟ قال " وإن زنى وإن سرق" قاله أربع مرات ثم قال في الرابعة وإن رغم أنف أبي ذر "** [٤]

إلى غير ذلك من النصوص الدالة على أن من عمل عملاً من الأعمال الصالحة استحق دخول الجنة أو حرمه الله به على النار .

وإزاء هذه النصوص انقسم علماء الملة إلى ثلاث فرق رئيسية هي : [٥]

١ – الخوارج المعتزلة :

وهؤلاء غلبوا جانب الوعيد ، حتى غلوا فيه ، وحتموا بالنار خالداً أبداً ، لكل من مات على كبيرة ، من غير توبة ، فجعلوا ارتكاب ذنب واحد – غير الشرك – محبطاً لكل ما عمل من حسنة حتى التوحيد ، ثم اختلفت الخوارج والمعتزلة بعد اتفاقهم على حكمه ، خلافاً لفظياً في اسمه ، فالخوارج أخرجته من الإيمان ، وأنزلته الكفر إذ هو ضده ، والمعتزلة أخرجته من الإيمان ، ولم تنزله الكفر ، وإنما أنزلته منزلة بين المنزلتين ابتدعتها وانفردت بها دون سائر فرق الإسلام ، ثم إنهم إما ردوا أحاديث الرجاء بحجة ضعفها ، أو كونها أحاديث آحاد ، وإما تأولوها بما يوافق المذهب ، كحملها على التائب أو صاحب الصغيرة ونحو ذلك .

٢ – المرجئة :

وقد غلبت هذه الفرقة جانب الرجاء حتى غلت فيه ، وزعمت أن مرتكب الكبائر مؤمن كامل بالإيمان ، بل بلغ بهم الأمر إلى أن قالوا في مرتكبي الكبائر على حد حكاية الطبري عنهم أنهم مؤمنون بإيمان جبريل وميكائيل ، وهم من أهل الجنة ، وقالوا : لا

---

(١)- عثمان : هو عثمان بن عفان بن أبي العاص القرشي أبو عمرو ، أمير المؤمنين ذو النورين أسلم قديماً وهاجر الهجرتين ، وهو أحد العشرة المشهود لهم بالجنة ، ومناقبه كثيرة ، قتل شهيداً سنة ٣٥ هـ وقيل غير ذلك ، انظر : الإصابة جـ ٦ ، ص ٣٩١ .

(٢)- أخرجه مسلم في كتاب الإيمان باب الدليل على أن من مات على التوحيد دخل الجنة جـ ١ ، ص ٥٥ ، رقم ٢٦ .

(٣)- أخرجه البخاري في كتاب مواقيت الصلاة باب فضل صلاة الفجر جـ ٢ ، ص ٦٣ رقم ٥٧٤ ومسلم في كتاب المساجد ومواضع الصلاة باب فضل صلاتي الصبح والعصر والمحافظة عليهما جـ ١ ، ص ٤٤ ، رقم ٦٣٥ .

(٤)- أخرجه البخاري في كتاب اللباس باب الثياب البيض جـ ١٠ ، ص ٢٩٤ رقم ٥٨٢٧ .

(٥)- انظر : آراء الطبري الكلامية للباحث طه نجا – رسالة ماجستير – كلية دار العلوم بالقاهرة ١٩٩٩-٢٠٠٠م ، ص ٣٧٣ ، ٣٧٤ .

يضرهم مع الإيمان ذنب صغيراً كان أو كبيراً ، كما لا تنفع مع الشرك طاعة [١] ثم إنهم إما ردوا أحاديث الوعيد وأنكروها قلة علم منهم بها ، وعياً عن تفسيرها ، وإما تأولوها بما يشبه ردها ، فحملوها على النهي عن هذه الأفعال ، لا أنها خبر عن جزاء أهلها ، وإما تأولوها فيمن استحل ما فعل ، فأما من فعل الكبيرة وهو مقر بتحريمها فهو عندهم مؤمن مستكمل للإيمان .

٣ ـ أهل السنة والجماعة :

أما سلف هذه الأمة من الصحابة والتابعين فمن بعدهم من أهل السنة والجماعة ، فأجمعوا على أن مرتكب الكبيرة من أهل التوحيد لا يخلد في النار ، بل إما يعذبه الله في النار بما أوعده على ما اكتسب ، ثم يدخله الجنة بعد ذلك خالداً أبداً ، وإما يدخله الجنة ابتداءً ، من غير أن يعذبه في النار إما بشفاعة أو غير ذلك من أسباب عفو الله ورحمته سبحانه .

واجتهدوا في الجمع بين نصوص الوعد والوعيد ، وذلك بتقريرهم قواعد ثلاث للجمع بين هذه النصوص وهي :

القاعدة الأولى : (أن الجنة درجات وكذلك النار دركات)

ويدل على أن الجنة درجات قوله تعالى: ﴿ **وَمَن يَأْتِهِ مُؤْمِناً قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُوْلَئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَى** ﴾ [٢]

وقوله : ﴿ **فَأَمَّا إِن كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ * فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّةُ نَعِيمٍ * وَأَمَّا إِن كَانَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ *فَسَلَامٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ** ﴾ [٣]

وعن أبي هريرة أن النبي ﷺ **قال " إن في الجنة مائة درجة أعدها الله للمجاهدين في سبيل الله ، ما بين الدرجتين كما بين السماء والأرض ، فإذا سألتم الله فاسألوه الفردوس ، فإنه أوسط الجنة ، وأعلى الجنة ، وفوق عرش الرحمن ، ومنه تفجر أنهار الجنة "** [٤]

وعن أبي سعيد الخدري [٥] أن النبي ﷺ **قال " إن أهل الجنة ليتراءون الغرفة في الجنة كما تراءون الكوكب في السماء "** . [٦]

---

(١)- انظر : التبصير في معالم الدين ص ١٧٩ ، تحقيق علي بن عبد العزيز الشبل ، الطبعة الأولى، دار العاصمة ، الرياض ١٤١٦هـ .

(٢)- سورة طه آية ٧٥ .

(٣)- سورة الواقعة آية ٨٨ ـ ٩١ م .

(٤)- أخرجه البخاري في كتاب الجهاد باب درجات المجاهدين في سبيل الله جـ ٦ ، ص ١٤ ، رقم ٢٧٩٠ .

(٥)- أبو سعيد الخدري : هو سعد بن مالك بن شيبان بن الحارث بن الخزرج أبو سعيد الخدري ، وهو مشهور بكنيته ، من مشهوري الصحابة وفضلائهم ، وهو من المكثرين من الرواية عن النبي ﷺ وأول مشاهده الخندق وغزا مع رسول الله اثنتي عشرة غزوة ، توفى سنة أربع وسبعين ، ودفن بالبقيع . أسد الغابة جـ ٢ ، ص ٢٣١ ، تهذيب التهذيب جـ ٣ ، ص ٤١٦ .

(٦)- أخرجه مسلم في كتاب الجنة وصفة نعيمها باب ترائي أهل الجنة أهل الغرف كما يرى الكوكب في السماء جـ ٤ ، ص ٢١٧٧ ، رقم ٢٨٣٠ .

وأما ما يدل على أن النادر دركات فقوله تعالى:﴿ **إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ**﴾ (١) وقوله: ﴿ **وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ** ﴾ (٢)

وعن العباس بن عبد المطلب (٣) أنه قال للنبي ﷺ " **هل نفعت عمك بشيء فإنه كان يحوطك ويغضب لك ؟ قال " نعم ، وهو في ضحضاح من نار ولولا أنا لكان في الدرك الأسفل من النار** " (٤) ونحو ذلك من النصوص الدالة على هذه القاعدة.

القاعدة الثانية : (هناك من يدخل الجنة قبل غيره)

ويدل على ذلك قوله تعالى: ﴿ **وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ وَعَلَى الأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلاًّ بِسِيمَاهُمْ وَنَادَوْا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَن سَلامٌ عَلَيْكُمْ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ** ﴾ إلى قوله تعالى : ﴿ **أَهَؤُلاءِ الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لاَ يَنَالُهُمُ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ لاَ خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلاَ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ** ﴾ (٥)

وقوله: ﴿ **والذين وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَيْءٍ** ﴾ (٦)

وعن أبي هريرة أن النبي ﷺ **قال " أول زمرة تدخل الجنة على صورة القمر ليلة البدر ، والذين على إثرهم كأشد كوكب إضاءة** " (٧) ونحو ذلك من النصوص الدالة على هذه القاعدة .

القاعدة الثالثة : (في نصوص الوعد والوعيد حذف تقديره إلا أن يشاء الله)

ويدل على هذا التقدير قوله تعالى: ﴿ **إِنَّ اللَّهَ لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ**﴾ (٨)

---

(١)- سورة النساء الآية ١٤٥ .

(٢)- سورة غافر الآية ٤٦ .

(٣)- العباس بن عبد المطلب : هو العباس بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف القرشي الهاشمي ، عم رسول الله ﷺ ، ولد قبل النبي بسنتين ، وكان إليه في الجاهلية السقاية والعمارة ، وحضر بيعة العقبة مع الأنصار قبل أن يسلم ثم أسلم وهاجر قبل الفتح بقليل وشهد الفتح وثبت يوم حنين ، مات بالمدينة سنة اثنتين وثلاثين وصلى عليه عثمان ، ودفن بالبقيع وهو ابن ثمان وثمانين سنة . الإصابة جـ ٤ ، ص ٣٠ ، أسد الغابة جـ ٣ ، ص ٦١ .

(٤)- أخرجه البخاري في كتاب مناقب الأنصار باب قصة أبي طالب جـ ٧ ، ص ٢٣٢ رقم ٣٨٨٣ ومسلم في كتاب الإيمان باب شفاعة النبي لأبي طالب والتخفيف عنه بسببه جـ ١ ، ص ١٩٤ ، رقم ٢٠٩ .

(٥)- سورة الأعراف الآيات ٤٦ – ٤٩ .

(٦)- سورة الطور آية ٢١ .

(٧)- أخرجه مسلم في كتاب الجنة وصفة نعيمها باب أول زمرة تدخل الجنة على صورة القمر ليلة البدر وصفاتهم وأزواجهم جـ ٣ ، ص ٢١٧٨ ، رقم ٢٨٣٤ .

(٨)- سورة النساء آية ٤٨ ، ١١٦ .

وعن عبادة بن الصامت أنه قال " كنا مع رسول الله ﷺ في مجلس فقال " **بايعوني على أن لا تشركوا بالله شيئاً ولا تسرقوا ولا تزنوا ، فمن وفى منكم فأجره على الله ، ومن أصاب من ذلك شيئاً فستره الله فهو إلى الله ، إن شاء غفر له وإن شاء عذبه** " قال : فبايعناه على ذلك . (١)

وعنه أيضاً أن النبي ﷺ **قال " خمس صلوات كتبهن الله على العباد ، فمن جاء بها لم يضيع منها شيئاً استخفافاً بحقهن ، كان له عند الله عهد أن يدخله الجنة ، ومن لم يأت بهن فليس له عند الله عهد ، إن شاء عذبه وإن شاء أدخله الجنة** " . (٢)

ونحو ذلك من النصوص الدالة على أن العصاة في مشيئة الله عز وجل يوم القيامة.

وبهذه الضوابط الثلاث سعد أهل السنة والجماعة بالجمع بين نصوص الوعد والوعيد فقول النبي ﷺ " **لا يدخل الجنة من فعل كذا** " **ولا يدخل النار من فعل كذا** " المراد به أحد الأمور الآتية :

أ – هذا جزاؤه إن جازاه الله عز وجل وقد يعفوا الله تعالى عنه .

ب – أنه لا يدخل الجنة مع الداخلين الأولين ، بل يأخذ حظه من العذاب إلا إذا عفا الله عنه ثم يدخل الجنة .

جـ - أو لا يدخل نوعاً من الجنان التي أعدت لمن ترك هذا الفعل ، وكذا القول في النار يحمل على تحريمه على نار مخصوصة وهي نار المشركين .

وبهذا يحصل الجمع بين النصوص ، ويسعد أهل السنة بعملهم بجميع النصوص في هذه المسألة وقولهم هو الصواب وهو ما رجحه الآلوسي وبه ندين .

---

(١)- أخرجه البخاري في كتاب الإيمان باب ١ جـ ١ ، ص ٨١ رقم ١٨ .

(٢)- أخرجه الإمام مالك في الموطأ في كتاب صلاة الليل باب ٣ الأمر بالوتر جـ ١ ، ص ١٢٣ تعليق محمد فؤاد عبد الباقي ، ط دار إحياء الكتب العربية ، وابن ماجة في كتاب الإقامة باب ما جاء في فضل الصلوات الخمس والمحافظة عليها جـ ١ ، ص ٤٤٨ رقم ١٤٠٤ ، والنسائي في كتاب الصلاة باب المحافظة على الصلوات الخمس جـ ١ ، ص ٢٣٠ .

openkandil.com